هذا فصل في " الذي " خصوصاً .

أعلمْ أنّ َ لك في " الذي " علماً كثيراً وأسراراً جمّ َةً وخفايا إذا بحثْتَ عنها وتصورتَها اطّ َلَعْتَ على فوائدَ تُؤْنسُ النفسَ وتُثلِجُ الصّ َدرَ بما يُفْضِي بكَ إليه منَ اليقين ويؤدّ ِيه إليكَ من حُسْنِ التّ َبيين . والوجُه في ذلك أنْ تتأملَ عباراتٍ لهم فيه : لِمَ وُضِعَ ولأيّ ِ غَرَضٍ اجتُلِبَ وأشياءَ وصفوه بها .

فمن ذلك قولهم : إن " الذي " اجتُلِبَ ليكونَ وصلةً إلى وصفِ المعارفِ بالجُمل كما اجتُلِبَ " ذو " ليتوصّ َلَ به إلى الوصِف بأسماءِ الأجناس يعنون بذلك أنك تقولُ : مررتُ بزيدٍ الذي أبوه منطلِقٌ وبالرجلِ الذي كان عندَنا أمسِ . فتجدُكَ قد توصّ َلتَ بالذي إلى أن يبيّ ِنَ أبنْتَ زيداً مِنْ غيرهِ بالجملة التي هي قولُك : " أبوه منطلِقٌ " . ولولا " الذي " لم تصِلْ إلى ذلك كما أنك تقولُ : مررتُ برجلٍ ذي مَالٍ : فيُتوصّ َلُ بذي إلى أن يبيّ َن الرجلُ من غيرهِ بالمال . ولولا " ذو " لم يتأتّ َ لكَ ذلكَ إذ لا تستطيعُ أن تقولَ : برجلٍ مالٍ . فهذه جملةٌ مفهومةٌ إلاّ أن تحتَهَا خبايا تحتاجُ إلى الكشفِ عنها .

فمن ذلك أن تَعْلَمَ مِنْ أينَ امتنعَ أن توصَفَ المعرفةُ بالجملة ولِمَ لَمْ يكن حالُها في ذلك حالَ النكرةِ التي تَصِفُها بها في قولكَ : مررتُ برجلٍ أبوه منطلِقٌ ورأيتُ إنساناً تُقادُ الجنائبُ بينَ يديهِ . وقالوا : إنّ َ السببَ في امتناعِ ذلك أن الجملَ نكراتٌ كلّ ُها بدلالة أنها تُسْتَفَادُ وإنما يستفادُ المجهولُ دونَ المعلوم . قالوا : فلمّ َا كانت كذلك كانتْ وَفقاً للنكرة . فجازَ وصفُها بها ولم يَجُزْ أن توصَفَ بها المعرفةُ إذ لم تكُنْ وَفقاً لها